السجن في كتابات أطفال فلسطين من سنة (2000 - 2014) *

د. مرزوق بدوي عبد الله بدوي **

* تاريخ التسليم: 15/ 6/ 2014م، تاريخ القبول: 26/ 10/ 2014م.
** أستاذ مساعد/ كلية المجتمع/ جامعة النجاح الوطنية/ نابلس/ فلسطين.

ملخص:

تقوم هذه الدراسة على تحليل نماذج متنوعة من النتاج الأدبي لأطفال فلسطين، فيما يتعلق بالحركة الأسيرة، وما يواكبها من تداعيات نفسية وإنسانية واجتماعية، تلقي بظلالها على أفراد المجتمع عامة، والأطفال خاصة، ومدى تأثيرها على فئة الصغار الذين يستهدفهم الاحتلال الإسرائيلي ذو الطبيعة العدوانية، والزجِّ بهم في ظلمات سجونه القمعية، وحرمانهم من ممارسة طفولتهم البريئة كما هم أطفال العالم.

كما تعرض البحث إلى إبراز الدور النضالي لأطفال فلسطين الذين فجَّروا انتفاضة الحجارة، فوثقوا في كتاباتهم ما يكابدونه هم وأقرانهم من ألم الحرمان وغطرسة المحتل في معتقلاته الظالمة، كنتيجة متوقعة لفعل المقاومة، ثم إلقاء الضوء على ما يحمله السجن السياسي خلف قضبانه الصدئة، من عذابات وويلات يقصد بها تشويه البنية النفسية والجسدية والثقافية للأطفال الأسرى، وكذلك إظهار الأثر السلبي الذي يتركه اعتقال أحد الوالدين على الأبناء، من تدمير للأسرة، وتشتيت لأفرادها، وإضعاف لمقوماتها، نتيجة لفقدان أحد أهم أركانها، وغياب التربية السليمة التي يحتاج إليها الطفل في مراحله الأولى.

ثم سعت الدراسة إلى الكشف عن ممارسات القمع الصهيوني، وتفننه في اختيار أساليب التعذيب والتنكيل، والإجراءات الاعتقالية التعسفية، وما ينتج عنها من آثار سلبية في نفوس المعتقلين، وما يترتب عليها من إحباط وتجهيل وضياع، الأمر الذي يؤدي إلى تأجيج روح المقاومة الذي يعتمل في نفوس الأسرى، ولعل الأقلام البريئة بين الأصابع الندية، إلى جانب الحجارة المنتفضة على الأكف الطرية؛ تدافع عن حقوق الطفولة المستباحة، وحقوق الشعب المغتصبة، والقابعين في سجون الاحتلال؛ لتقول للعالم كافة.... أين حقي في الحياة...؟!!!

Prison in Palestinian Children Writings (2000- 2014)

Abstract:

This study is based on an analysis of various forms of creative literary production by Palestinian children about prisons and prisoners as a result of several factors such as their perception, implications of psychological, humanitarian and social factors, which cast a shadow on the members of society, and their impact on young people who live under the aggressive nature of Israeli occupation. This involves an image of darkness of repressive prisons, denying them to exercise their childhood as innocent children.

The research highlights the children›s struggle as documented in their writings and their peers, which represents the deprivation and arrogance of the occupier as a result of their resistance. I shed light on the sufferings and calamities intended to distort the psychological, physical, and cultural rights of young prisoners, as well as the negative impact on the parents and the family.

This study tries to detect the Zionists› practicing of oppression, torturing and abusing detainees. Despite bad consequences of such practices, these lead to inflame the spirit of resistance to defend the rights of childhood.

مقدمة:

ربما يكون من غير المألوف أن تختصر هذه الدراسة هدفها عبر كتابات الأطفال ومحاولاتهم الإبداعية، إن كان ذلك من بين قوافي القصيد، أو المشاهد القصصية، أو الخواطر الأدبية، حيث يعبّر الصغار عن واقعهم الجريح وطفولتهم المغتصبة بأقلامهم البريئة، وكلماتهم الجريئة، التي لم ترتكب يوماً من الأيام ذنباً سوى أنها فلسطينية المولد والحاضر والمستقبل، أو كما يقول الطفل (محمد الشامي) «لأننا فلسطينيون... هذه هي تهمتنا!!!»[1] .

فمثلما يتحدث الكبار عن تجاربهم وأمانيهم وتطلعاتهم، فإن للصغار الحق في الحديث عن أحلامهم وطموحاتهم، وإن كان الكبار قد عايشوا الحياة بين مدٍّ وجزرٍ، فإن الصغار لم يعيشوها بعد لا بين مدٍّ ولا بين جزرٍ، فالطفل ما زال في أول الطريق، ولا أحد يعلم إن كانت رصاصات القهر والغدر ستنقضّ على قلبه الطهور، أو أن الأغلال الصدئة ستقيُّد يديه الصغيرتين.

وهذا ما عبر عنه (عبد الله شريح) بقوله: « يتحدث الكبار عن الألم والمعاناة، عن بطش الاحتلال وظلمه، ولكن ماذا يقول الصغار، عندما يصادر السجن روابطهم الأسرية، وحاجتهم للأب وللأخ عندما يغيب عن أعينهم سنين، ويكبرون ويرصدون كل شاردة وواردة، يكبرون قبل الأوان، ويدركون الأشياء بطريقتهم الخاصة» [2] .

فأكثر هؤلاء الأطفال « يراودهم شعور بأنهم يثأرون للعجز واليأس الذي يرونه في عيون آبائهم من خلال خروجهم للمظاهرات والمطالبة بحقهم في الحياة» [3] . كما ويعبرون عن حريتهم في الدفاع عن حقهم السليب، فالطفل الفلسطيني قصة دمع ودماء وضياع، ذلك الصغير الذي تفتحت عيناه على ممارسات الإرهاب الصهيوني، التي عاش من خلالها رحلة معاناة وشقاء وألم، لكنه استطاع أن يفرض وجوده في معادلة الصراع، بعد أن أخذ زمام المبادرة بيديه، وفجّر بسواعده الطرية التي لا تحمل سوى الحقيبة المدرسية، أعظم انتفاضة شهدها القرن العشرين.

إن إصرار قوات الاحتلال الهمجية على التفنن باستخدام أساليب القهر والاستعباد، واعتقال الأطفال وترويعهم، لا يعني نجاحها في اقتلاع بؤرة التحدي في نفوسهم، أو القضاء على شعاع أملهم بالغد الذي يدفعون أرواحهم ودماءهم ثمناً لقدومه، بل العكس هو

ما حصل ويحصل، فتصاعد وتيرة القمع الوحشية أدت وتؤدي إلى زيادة التحدي، والإصرار على إكمال الدرب حتى نهايته [4] ، فالطفل الذي يحمل الحجارة ويفجر الثورة هو الطفل ذاته الذي يشاهد منزله الصغير تدمره جرافات الاحتلال، لا يعرف البيت الآمن، ولا يعرف دفء الوالدين؛ لأنهما قد يكونان في سجون الاحتلال أو في مقابر الشهداء، فعاش حياة التشرد بلا مأوى يقيه برد الشتاء وحرِّ الصيف، وهو الذي يتذوق مرارة فقد الأهل والأحبة، وقد سلبته رصاصات الاحتلال أعز أصدقائه، لكنه ما زال يملك كثيرا من طفولته رغم الحزن والألم، وما زال يحلم أن يعيش كسائر أطفال العالم، فإسرائيل ما زالت تُمعن في قتل الأطفال وتعذيبهم وتقديمهم للمحاكم العسكرية، وتزج بهم في غياهب السجن سنوات طويلة « فالحرمان من الحرية والاعتقال كان من نصيب من بادر قولاً أو عملاً إلى رفض دنس الاحتلال» [5] .

من هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على أبشع جرائم الاحتلال في عصر الحرية والتغيير، وتواكب المحاولات الإبداعية الأدبية لأطفال فلسطين على مختلف أشكالها، من خلال أقلامهم التي ترجمت أحلامهم وما يجيش في صدروهم من ألم ومعاناة، وعشق للحرية والحياة.

وقد رصد الباحث الأسباب التي دعت أطفال فلسطين للتعبير عن معاناتهم بالكتابة رغم صغر سّنهم، حيث كانت الكتابة تعبيراً واعياً عن رفضهم لواقعهم إلى جانب ثورة الحجارة كوسيلة من وسائل التفريغ النفسي، والخروج من حالة الإحباط التي تحاصر طفولتهم، وهذا ما يستدعي التأمل والتمحيص في تصنيف كتابات الأطفال ضمن أدب المقاومة.

ولم يسبق– على حد علم الباحث– أن أحداً من الدارسين أو الباحثين قد تطرق للبحث في هذا الموضوع ضمن دراسات أكاديمية سابقة، مما جعل من الصعوبة بمكان الحصول على مصادر للدراسة، واكتفاء الباحث بما كتبه الأطفال بأقلامهم عبر وسائل التعبير المتنوعة، وسار البحث على المنهج الوصفي لإنجاز هذا العمل وإتمامه.

تمهيد:

عندما يكون الحديث عن مجتمع تلاحقه سطوة الغرباء، وينال من أبنائه ظلم الجبناء، أصبح لا بد من التعرض لإحدى أهم عناصر القمع والإذلال التي يمارسها الغاصب بحق المغتصب، فالسجن بمفهومه السياسي ينطوي على أساليب قمعية عديدة من حالات الضغط النفسي، ووسائل الإرهاب المنظم.

وتعبّر بشاعة الاحتلال عن حالة لا إنسانية بكل معنى الكلمة حيث يُغمض العالم فيها عينيه، عن حالة تمزق وتشرد وتفكك منتظم، ليصبح فيها الشعب الفلسطيني بعامة وأطفاله بخاصة أشلاء لا حول لهم ولا قوة، بل حالة معقدة وفريدة من نوعها في عصر الحريات، وانتهاء زمن التطهير العرقي و التمييز العنصري فيما يسمى بالحضارة الإنسانية المعاصرة، مما يخلق أثراً نفسياً بالغ الخطورة في نفوس أبناء الشعب الفلسطيني الذي يقبع في ظلمات سجن الاحتلال الكبير، إن كان ذلك من خلال سجون القهر والاعتقال، أو كان من خلال جدار الفصل العنصري، أو المعابر أو الحواجز العسكرية المنتشرة في كل مكان التي تمارس أبشع أنواع الإذلال اليومي في أساليب قهرية لا إنسانية، بمنهجية عصرية حديثة تسعى لإبادة كل بشائر الحرية، في غياب قانون حق الإنسان في العيش بكرامة، وتحت أنظار نظام عالمي لا يرى إلا بعين واحدة.. هي عين الاحتلال الإسرائيلي.

ومما لاشك فيه أن الأطفال بصورة دائمة هم الضحية الرئيسة للمعاناة والاضطهاد، وهذا ما تظهره التقارير الدولية، وما تلمّح إليه كتابات الأطفال، والمحاولات البائسة في تحقيق طفولتهم بين دمار البيوت، وصواريخ الموت، وقضبان السجون.

« فالطفل يولد مفطورا على الحرية والعفوية في فهم الأحداث والظواهر والعلاقات الإنسانية، وإن أخطر ما يتهدد النشأة السوية له هو كونه يحيا في مجتمع قلق، فالطفل لا يرضى أن يكون مغلولا بالذل والقهر والاستعباد « [6]

السجن لغةً:

لقد وردت كلمة السجن في لسان العرب في مادة (سَجَنَ) على وزن فَعَلَ، سَجَنَ السّجن، حَبَسَ الحَبس، والمصدر سَجَنَهُ يسجنُه سجناً، أي حبسه بمعنى منعه، والسِّجين في القرآن اسم لجهنم. [7].

السجن في القرآن:

جاءت دلالة السجن في القرآن في سورتي يوسف والشعراء فقط، ووردت كلمة السجن في سورة يوسف ثماني مرات، منها قوله تعالى: «لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ» [8] وفي قوله تعالى على لسان سيدنا يوسف حين رفض ارتكاب الفاحشة: ﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**﴾ [9] وفي سورة الشعراء وردت على صيغة اسم المفعول، في قوله تعالى: ﴿**قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**﴾[10]

السجن اصطلاحا:

السجن مكان مغلق يُشعر بالخوف والضيق والكآبة، يُزجّ الشخص فيه رغما عنه، ويعامل فيه معاملة قاسية لا يعرفها إلا من عاناها، فالعزلة التي يعيشها الإنسان داخل

سجن محاط بالجدران المرتفعة، التي لا يرى النور من خلالها، ولا يكاد يحصي الأيام والشهور والسنين، حيث يتوقف الزمن عند بلوغ أول خطوة لبوابة السجن، مما يسبب عدم الاحتكاك بالعالم الخارجي، جميعها تؤدي إلى عذابات جسدية ونفسية، عدا عن الظروف القاسية التي يتبع فيها السجين أساليب تأديبية تحط من كرامته، « فالسجن له سمات مختلفة عن أي مكان آخر؛ لأنه مكان يُمارس فيه فعل قمعي ضد الشخص المناوئ للسلطة الحاكمة أو المحتلة المغتصبة، وفي السجن يُحرم الإنسان من أبسط حقوقه، وهو حق امتلاك حريته» [11].

ومن خلال ما سبق يظهر أن للسجن شكلين مختلفين [12] :

أ. السجن الجنائي:

هو ذلك المكان الذي يُحبسُ فيه المجرمون حفاظاً على أمن المجتمع وسلامته، ومن جهة أخرى هو مكان للإصلاح الاجتماعي.

ب. السجن السياسي:

هو مكان مخصص لكسر إرادة المناضلين، وتحطيم تطلعاتهم نحو الحرية، وإخضاعهم تحت سيادة السلطة الحاكمة، وذلك من خلال أساليب ترهيبية وتعذيبية قاسية، تستهدف إذلالهم وإجبارهم على القبول بسياساتها.

ثم إن هذا السجن: « ذو طبيعة خاصة تختلف عن طبيعة السجن العادي في المراحل التي يمر فيها السجين، وفي الصور التي تطالعه، وفي الآثار السلبية الجسدية والنفسية التي تصيبه فيه « [13].

وفي إطار هذا الفصل بين أشكال السجن، يبقى موضوع الدراسة متعلقاً في السجن السياسي لما يلاقيه المجتمع الفلسطيني من قهر وقمع وتنكيل، وزجٍّ لأبنائه في سجون الاحتلال بغير وجه حق، إلا إنهم يدافعون عن حقهم المسلوب، وحريتهم المصادرة.

وما من شك في أن السجن حالة طارئة في حياة الإنسان، فيها كثير من القسوة والألم، وإن ارتبطت بالنضال من أجل قيم سامية، « فالبحث عن الحرية والسعي نحو الانعتاق من القيود التي تفرض على الفرد أو المجتمع، تشكل صورة اجتماعية سياسية، ما هي إلا محاولة لاستعادة ما كان موجوداً بالأصل» [14].

الإنسان والمكان:

إن للمكان دلالة واضحة في حياة الإنسان ووجوده، لا سيما تحديد هويته وانتمائه، فالعلاقة بين الإنسان والمكان علاقة جدلية تبادلية، يؤثر فيها المكان ويتأثر منه، ولا قيمة للمكان الخالي من الإنسان، ولا وجود للإنسان إلا من خلال المكان، فأي مكان خالٍ من الإنسان يظل بالضرورة مجرداً من التاريخ والقيم والمعاني.

ولا شك أن المكان في هذا المفهوم قد يكون الوطن برحابته وتفصيلاته الدقيقة من أبنية وحدائق وشوارع وسكان، جميعها تنعم بالأمن والأمان والاستقرار، غير أن المسألة الفلسطينية مختلفة تمام الاختلاف، حيث يقبع الفلسطيني تحت تأثير الاحتلال منذ عشرات السنين، فلا وطن ولا بيت ولا هوية، والمكان حتماً يتراوح لديه ما بين وطن ممزق، وسجن مغلق، وقبر مدمَّر، ثلاثة لا رابع لهم إلاّ النفي أو الإبعاد.

وإذا كانت العلاقة بين الإنسان والمكان تظهر بوصفها علاقة جدلية بين المكان والحرية، فمما لا شك فيه أن الحرية أكثر صورها بدائية هي حرية الحركة، حيث يصبح المكان إشكالية إنسانية إذا ما اغتصب أو إذا حرمت منه الجماعة [15].

وفي هذا الإطار ليس غريباً على الشعب الفلسطيني أن تكون صورة السجن إحدى صور المكان التي التصقت في مخيلة أبنائه، كمكان جبري يعيش فيه الفلسطيني في ظروف قاهرة، فما من بيت إلاّ وفيه أسير وإن لم يكن فيه فعند الجيران أو أهل الحي، وفي كل الأحوال فإن الطفل الفلسطيني هو أكثر من يلحقه الأذى، فاستهداف الاحتلال للمجتمع الفلسطيني يقوم على ضرب مستقبله بإضعاف أطفاله بحرمانهم من حاجاتهم الأساسية والثقافية والاجتماعية، وتعريضهم لضغوط نفسية شديدة، ناجمة عن الإجراءات الاحتلالية القمعية التي يفرضها جنود الاحتلال، ممزوجة بشتى أصناف العذاب الجسدي والإرهاب النفسي في أثناء فترة اعتقالهم، منذ لحظة القبض عليهم من منازلهم في ساعات متأخرة من الليل واقتيادهم إلى مراكز التحقيق، حيث الإذلال والوحشية والامتهان لكرامتهم، وتعذيبهم أمام والديهم وزجهم في السجون لفترات طويلة، لإرهابهم وتجهيلهم، وإبعادهم عن قضيتهم ووطنهم [16].

فالطفل (شادي السلعوس) يعبر عن هذا الواقع أبلغ تعبير، فيقول في خاطرته: (حتى يكبر الأطفال قبل أوانهم) [17]: «هنا تنتحب الطفولة، وترتدي وشاح السواد حداداً على عالم مات فيه الضمير، واختفت فيه شمس الإنسانية عن أرجائه»، ويستمر شادي في وصف

الظروف المريرة التي يعيشها أطفال فلسطين تحت حراب المحتل الذي يمتهن كرامتهم وينتهك طفولتهم: « هناك وعلى أطراف ذلك الزمن كبر أطفال فلسطين، وعاشوا براكين اللهب، فكان منهم الشهداء والجرحى والأسرى والمعاقون، وكان منهم من فقد رعاية الأب وعطف الأم الحنون، ودفء حضنها الذي مزقته رصاصة حاقدة «.

أهمية المكان:

تبرز أهمية المكان بالنسبة للفلسطيني من خلال علاقته في الدفاع عن وطنه وأرضه، وما ينتج عن هذه العلاقة من سجن قهري في صوره المختلفة، تلك التي لا تقتصر على وصف السجن كجدران وزنازين ووسائل تعذيب وبوابات حديدية، بل يأخذ السجن شكلاً آخر من أشكال التحدي وتحطيم غرور السَّجان، حيث: « يتحول في بعض الحالات إلى مدرسة للغضب والصمود وشرارة لتكوين الحقد الذي يصنع البطولة» [18] .

ويسجل الواقع الفلسطيني عشرات الآلاف من الفتية الذين دخلوا السجون وهم في حالة إحباط واستكانة، لكنهم خرجوا منها أشدَّ عوداً وأصلب موقفاً، وأكثر وعياً بدورهم وقضيتهم ومصيرهم، وكانت سنوات السجن المعلم الحقيقي والشرارة التي أعادت إليهم الرجولة الوطنية، « فالسجن مفجّر للكراهية، ثم الكراهية محرضة على الثورة ضد السجن وبانيه، ثم الرغبة في نقل هذه الثورة من مستوى تخيل فعلها إلى مستوى ممارسة هذا الفعل على أرض الواقع « [19] ، وهذا ما يعبر عنه طفل فلسطيني حين يقول: « عندما اعتقلت في المرة الأولى كنت أخشى الجيش الإسرائيلي، ولكن بعد أن اعتقلت في معسكر الاعتقال تعلمت أن لا أخشى الجيش» [20] .

ويقول البروفيسور الإسرائيلي هيلر: « ليس ثمة شيء يذكر يمكن القيام به في معسكرات الاعتقال سوى الجلوس والتحدث، فالصغار يحصلون على دروس في التاريخ الفلسطيني، حيث يقوم المعتقلون ممن هم في سن الأربعين بدور المعلمين، كذلك من المحتم أن يملك الفتيان الأصغر سناً وعياً سياسياً عندما يطلق سراحهم؛ لذلك فإن المعتقلين الأصغر سناً ممن خرجوا من معسكرات الاعتقال يترجمون ذلك – الوعي السياسي– عملياً، فنتيجة لتحمسهم للقتال، أصبحوا قادة المقاومة الشبابية ضد إسرائيل». [21]

وعلى الرغم من ذلك فإنه ليس بمقدور أحد أن يتناسى الآثار النفسية البالغة التي يتركها السجن في نفوس الأطفال، « فتأثير المكان في نفسية الإنسان غالباً ما يكون أعمق من التأثير في الجسد، وذلك لما تمتاز به النفس الإنسانية من إحساس مرهف، فأكثر الأمور بساطة تطبع في النفس علامة يصعب محوها مع مرور الزمن» [22] .

وفي براءة الكلمات وطهارة الأقلام الممزوجة بالقهر والأمل والألم، يقول الطفل شادي السلعوس: « هناك وعلى أطراف ذلك الزمان، كانت الرياح العاتية في الليالي المظلمة، رياح عاصفة هوجاء، قد قاوموا الموج القادم من هنا وهناك، ويومها قالوا إنهم ضائعون... هالكون... ميتون.. لكنهم عادوا صامدين مع الريح، كالعملاق داخل الأسر » [23]

السجن في الموروث الشعبي والاجتماعي:

تبدو كلمتا السجن والحرية نظرياً متناقضتين، لكنهما في الواقع العملي غير مختلفتين، فالعلاقة بينهما تبادلية، إذ إن كليهما يشكل مدخلاً للآخر، فالدفاع عن الحرية والإصرار على انتزاعها طريقان تحفهما رحلة آلام تكاد تكون مضنية، ثيابها العذاب ورحابها الأمل.

فالحرية بصورة خاصة تحتاج إلى إرادة وعزيمة، وصبر وتضحية للظفر بها، إلى جانب طموح إنساني عامر بإرادة الحياة، وتبديد ظلمة الليالي القاتلة، كما قال الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي في قصيدته (إرادة الحياة) ، تلك التي يتغنى بها أبناء فلسطين صغاراً وكباراً:

(البحر المتقارب)

إذا الشعب يوماً اراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر [24]

فمن الطبيعي أن يتربى الأطفال في فلسطين ويترعرعوا على: « احترام وطنهم من خلال الأشعار والأناشيد والأغاني الوطنية، وقصص البطولة في مقاومة المحتل، مما يخلق لهم هوية قوميةً وانتماء وطني يتعرضان للتهديد من قبل الاحتلال» [25] .

يا دامي العينين، والكفين!
إن الليل زائل...
لا غرفة التوقيف باقية
ولا زرد السلاسل..!
نيرون مات، ولم تمت روما....
بعينيها تقاتل!
وحبوب سنبلة تموت
ستملأ الوادي سنابل [26]

كلمات عامرة بالانتصار يرددها أبناء فلسطين في أحلك ليالي القهر والاستعباد، نسجها شاعر الثورة (محمود درويش) ، يستمدون من خلالها بريق الأمل والحرية، ويحملون بين أنغامها بشائر النصر والاستقلال، واندحار الغاصب المحتل.

وعلى أنغام قصيدة (موطني) لشاعر فلسطين والعروبة (إبراهيم طوقان) ، يتغنى الفلسطينيون في أكثر المناسبات الوطنية، اعتزازاً بالوطن وفخراً بالانتماء إليه، القصيدة التي أصبحت رمزاً ونشيداً وطنياً لكل عربي حر يفاخر بعروبته، ويعتز بانتمائه لوطنه والعيش فيه بلا احتلال أو إذلال أو أغلال:

موطني الجلال والجمال والسناء والبهاء في رباك
والحياة والنجاة والهناء والرجاء في هواك
هل أراك
سالماً منعماً وغانماً مكرماً
هل أراك في علاكْ
تبلغ السماكْ
موطني (27)

كما ويتأثر أبناء المقاومة بمن فيهم الأطفال بنشيد السجن الذي نظمه الشاعر السوري (نجيب الريس)

في العشرينيات من القرن الماضي، الذي يخاطب من خلاله ظلمة السجن وقسوة السجان، أملاً بالحرية

والخلاص قائلا:

(مجزوء الرمل)

يا ظلام السجن خيّم إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل إلاّ فجر مجد يتسامى (28)

وللتراث الشعبي أهمية كبرى في حياة المجتمعات والشعوب، حيث يعزز العلاقة بين الإنسان ووطنه وأمته، وحضوره الدائم في أذهان الناس يجسد مفهوم الهوية والأصالة، ويحقق الانتماء وتقدير الذات، فالأغنية الشعبية هي إفراز سياسي واجتماعي يعيشه الناس، لا سيما أن الأدب الشعبي يعبر عن ذاتية الشعب المستهدف، وتقدمه الحضاريّ وتواصله التاريخي. (29)

ولعل أكثر أطفال فلسطين يحفظون الأغنية الشعبية التي يرثي بها الزجال الفلسطيني نوح إبراهيم الشهداء الثلاثة في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي، الذين أعدموا بقرار من حكومة الانتداب البريطاني في ذلك الوقت، لاشتراكهم بالثورة.

من سجن عكا طلعت جنازي محمد جمجوم وفؤاد حجازي
وجازي عليهم يا شعبي جازي المندوب السامي وربعو عمومـا [30]

السجن في ذاكرة أطفال فلسطين:

ليس من الطبيعي أن يتحدث الأطفال في مختلف مراحل أعمارهم عن الخوف والموت والدمار والاعتقال، بدلا من الأرجوحة واللهو واللعب، والعصفورة والنهر والوردة، لكنه الواقع الذي يفرض نفسه على أطفال فلسطين، الذين لم ينالوا من هذا الحاضر سوى الآلام والجراح والدموع على أحبائهم، وثقل القيد والأغلال المشبعة بالحقد والكراهية، حيث تعرض الشعب الفلسطيني لواحدة من أوسع التجارب وأكثرها ألماً ومرارة، فيما أصبحت صورة السجن ظلاً من الذكريات والمآسي تصاحب أبناءه عامة وأطفاله خاصة، وشكلاً آخر من أساليب الإحباط النفسي التي يمارسها الاحتلال ضد هؤلاء الأطفال، بما يتعرضون له من تراكمات وإرهاصات في مرحلة السجن وعلى الرغم من كل هذا الظلم والظلام، فإن أطفال فلسطين قد أبدعوا في تصوير واقعهم في مختلف أشكال المقاومة.

تحاول (وئام العملة 15 عاماً) في صرختها (وراء قضبان الزنزانة) إسماع صوتها إلى دعاة الحرية والعدالة الإنسانية، دفاعاً عن الوطن السليب والحق المغتصب، واستهجاناً للممارسات الاحتلالية بحق المقاومين فتقول [31] : « هو بريء دون تهمة، حُرِم من عائلته وحريته، يقف وراء قضبان الزنزانة وينتظر شروق الشمس» ثم تصرخ احتجاجاً على القيد والأغلال، امتعاضاً من دنس الاحتلال، « أتساءل عن الذنب الذي اقترفه من أجل أن يعيش « هكذا ترسم وئام صورة الغاصب، ظلم وعدوان وقهر وتسلط، تلك الأسباب التي يخرج من رحمها جنين المقاومة الذي كان ذنبه « أن نطق الشهادتين.. لعل وعسى أن تشرق شمس الحرية على الزنزانة « وفي هذا المعنى تضمين لقدسية المقاومة، وضرورة ملحة للخروج من عتمة الزنزانة إلى فضاء الحرية.

صورة السجن في كتابات الأطفال:

أظهرت كتابات الأطفال صورا متنوعة لرؤيتهم للسجن فهي:

1. الكتابة نافذة الحرية:

تعد الكتابة النافذة التي يتنفس الأطفال من خلالها عبير الحرية، إذ إنها تعبير عن

عشق الحياة، والخفقات النابضة في فضاء الانتصار على كل ما يتعلق بالاحتلال، وأساليبه الهمجية، التي يحاول من خلالها النيل من مستقبل طفولتهم.

فالسجن بالنسبة للطفل الفلسطيني تجربة مرعبة تشكل تهديدا نفسيا وحالة من عدم الاستقرار العاطفي، إذ إن اعتقال أحد الوالدين يعني التشرد والضياع، ونوعا من أنواع الحرمان والإرهاب اللاإنساني، فالأسرة « ميدان الطفل وطمأنينته واستقراره وطموحه، فإذا عانت الأسرة انعكس ذلك على الطفل بصورة مباشرة، وأثّر على سلوكه في مختلف سنين عمره» [32] .

يقول مبارك بن ربيع: إن الكتابة: « ضرورة ملحة أمام سيادة العدم والغياب والضياع للقيم الإنسانية الجميلة، والمعاني السامية النبيلة، كما أنها ترسيخ لحقنا في الحلم، ولرسم بشائر الفجر في الأفق، فالإبداع فضاء حريتنا المتبقي» [33]

وبهذا المفهوم تستعرض الطفلة (أسيل مصلح) واقع الطفولة المغتصبة في صرختها (أين حقي) قائلة:

« أين حقي كإنسان من المفترض أن أعيش حرّاً طليقاً في بلدي وفي وطني، أين حق الحرية لإنسان في أول العمر، يفقد الأمل في الحياة، حيث يجد نفسه سجيناً في معتقلات الاحتلال لأعوام طويلة، وحين يجد زهرة شبابه تذبل خلف قضبان العدو»[34] .

2. تصوير مشاهد الاحتجاج:

تصور الطفلة (مجد اللهالية) [35] : مشاهد الاحتجاج على صمت الآخرين، وتظهر مشاعر الفخر والاعتزاز بالأطفال الذين أمسكوا زمام المبادرة والتغيير بأيديهم، وقد آل بهم المطاف إلى معتقل النقب الصحراوي، فتقول: «استبيحك عذراً أيها الطفل المعذب تحت لهيب الشمس في النقب، أيها الطفل الحامل حجراً، أنت أشرف منهم جميعاً، سأجد الكلمات والجمل، لأكتب للعالم رسالة رجلٍ ربما تعتبرونه طفلاً» بهذه المعنوية العارمة يتغنى أطفال الحجارة بصمودهم، حيث تتشكل الأجوبة عن كل الأسئلة التي قد تراود أذهان الآخرين.

أشكال السجن:

ظهرت صورة السجن بأشكال مختلفة في كتابات أطفال فلسطين، منها:

1. الزنزانة الانفرادية:

تعد الزنزانة الانفرادية وسيلة من وسائل تعذيب السجين والضغط عليه لنزع اعترافاته،

وكسر إرادته وتهيئته للرضوخ لأوامر المحتل، والزنزانة في أغلب الأحيان مكان ضيق لا يتسع لأكثر من شخص، يضيئها نور ضعيف لا يميز من خلالها السجين ليلا ولا نهارا، ولا صيفا ولا شتاء.

تتناول (كريستين خضر 16 سنة) السجن من خلال الزنزانة الانفرادية، وما يواكبها من عذابات نفسية تحيط بحياة السجين فيها، إذ إن شعوره بالوحدة، وتوقف الزمن عبر ظلمات الخوف من الأسباب التي ترهق ذاكرة المعتقل، وتزيد من الضغوطات السلبية عليه. فتقول في خاطرتها (كلمات رهن الاعتقال) [36] : «حين تكون في عزلة لا ترى سوى ظلام قاتم، الخوف يعتريك بلحظة، يفرغ الكلام في الذاكرة، فيجمد شعورك لتكسر الزمن»، تحاول الكاتبة استشراف الحقيقة الإنسانية التي يمارسها الناس في حياتهم بشكل طبيعي، ويعيشها الفلسطيني المضطهد بصورة مغايرة على أرضه المسلوبة وبيته المهدد، فالاحتماء بذكريات الطفولة، ربما يؤدي إلى الخروج عن القيود والأغلال بعض الوقت، «حينها سيراودك صوت ربما قد يكون خيالا وتصبح شخصا راقدا في ظلام الخوف، أردت أن تعيش طفولة مفقودة في حلم لا يتخطاه زمن طويل» لكنها مرة أخرى تعود إلى ذكريات البراءة والطفولة، تحيا على رائحة الماضي الجميل، حتى تتبدد ظلمة الخوف وتختصر الزمان، لكن عدم الاستطاعة على تحقيق ذلك، تحول دون القدرة على تحديد ملامح وجه الفرح الذي كان يداعب التاريخ ويقفز فوق كل الجراح والآلام « ستعود مع الزمن إلى الوراء، وتخطو كل خطوة بحذو البراءة والعنفوان لتحرق غبار الصمت، وتجتاح حنين طفل غريب لتتذكر أي ملامح من أثره كأنك قد عشت في سجن بقيود كاسرة لا تفعل شيئا سوى أن تجلس وتكسر كل الأبواب في نفسك، وتشعل قنديلا في قلبك محاولا أن تسمع دقة قلب حية بداخلك»، إذن فالإيمان بالحرية وعدم اليأس من قدومها، وكذلك الأمل بانحناء تلك القضبان، يفتح نافذة النور للخروج من ذلك الموت البطيء، لتشعر أنك ما زلت على قيد الحياة.

لقد صورت الكاتبة تجربة السجن القاسية بدقة بالغة، حيث دخلت زنزانته الانفرادية وأبرزت الملامح النفسية التي تعتري السجين في عزلته ووحدته، فأهمية الحديث عن السجن تكمن في الأثر النفسي العميق على السجين حيث يفقد الإنسان كرامته، ثم تحاول الكاتبة وصف المكان مرة أخرى، فهو ليس ببعده الجغرافي، وإنما ببعده الاجتماعي والتاريخي والسياسي، فالسجن يُشعر بالخوف والكآبة، حيث يعامل فيه السجين معاملة قاسية لا يعرفها إلا من عاناها.

« فربما أنت لست ممن ينحني للدمع حين تتلطخ بالدماء، ولكن ليس عدلا أن تطلق على ذاك المكان بالسجن وأنت تملك مفتاحه» إن السجين رغم القيود والأغلال والبيئة المرعبة، فهو يملك حريته، وهو المناضل الذي اختار السجن أو الشهادة، وكلاهما يعد انتصارا.

لا شك أن السجن ليس كأي مكان آخر، فهو مكان يمارس فيه القمع والإذلال، حيث يحرم الإنسان فيه من أبسط حقوقه، وهو حق امتلاك حريته، « وليس عدلا أن تلقب بالسجين ما دمت لم تكن لوهلة رهن الاعتقال، فحريّ بك أن تطلق على ذلك الرجل الذي أحرق حروفك بشرارة من نار قلبك، بالرجل المتعصب الذي لا يأسر المنطق في عقله، أو أنه كعدو اغتال برصاصة دقات قلبك، لا يزال ذاك الطفل بين كلمات رهن الاعتقال».

ربما تكون قد حملت هذه الكلمات شيئا من الفلسفة، لكنها قد تستطيع تحريك الخيال واختراق جدران المعتقل، وتحاصر ذلك المحتل المتعصب الذي لا يعرف سوى القتل والنهب والتدمير.

2. التعذيب:

تبرز سادية الجلاد حينما يرى أمامه معتقلا قوي الإرادة، فيعمد إلى التنكيل به، والتفنن في تعذيبه، للحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات من خلال تهديده وتخويفه والمس بكرامته، واستخدام عوامل الضغط النفسي لتقرّبه من الاعتراف والانهيار.

ويستعرض (إسماعيل سباتين 16 سنة) : لحظة اعتقاله في قصته (الاعتقال) ، وهو يتنفس بحسرة وأسى، ودموع القهر تكاد تقفز من بين السطور والكلمات فيقول [37] :

«دخل ثلاثة رجال مقنعون إلى الغرفة، وعصبوا عينيّ ووضعوا رأسي في كيس... ثم أنهالوا علي بالصفعات والرفسات، وضربوني بأنبوب... ، وبكل ما وقعت عليه أيديهم، لم أر شيئاً لأني معصوب العينين، فقدت الشعور بكل شيء إلا الضربات»، ثم يسترسل محمد في وصف عملية التحقيق: « دام الأمر 15 دقيقة، أجلسوني بعدها على كرسي و أمروني بالإمساك بأنبوب مثبت بالجدار، ثم أزاحوا الكرسي من تحتي وتركوني معلقاً في الهواء، ويديّ المكبلتين بالأغلال ممسكتين بالأنبوب، وثقل جسمي المتدلي في الهواء يشد ذراعي إلى الأسفل «، ويستمر محمد في تصوير المشهد بأدق التفاصيل وأكثرها تعاسة « حرمان من النوم والطعام، تفنن في الضرب والرفس، وضع الرأس في المرحاض، وصب الماء البارد في البرد القارص على المعتق»

وفي إطار هذه المشاهد المرعبة فإنه ليس غريبا على الاحتلال أن تتعدد أشكال معاناة الأطفال الأسرى في سجونه المظلمة، إذ إن الاعتقال قد سبب لهم صدمات شديدة،

وهزات نفسية عميقة، نتيجة لتعرضهم لتجربة قاسية، تركت لديهم أثارا سلبية سواء أكانت نفسية أم جسدية.

ولما كانت هذه المشاهد تعبر عن وحشية الاحتلال وممارساته اللاإنسانية، فإن الصورة التالية تقدم تصويرا تمثيليا للأحاسيس والمشاعر التي تتملك المعتقل داخل الزنزانة، فالطفلة (أسل حمادنة 11 سنة) تعبر عن حزنها وامتعاضها من حال شعبها، الذي تلاحقه عصا البغي والعدوان، فممارسات الاحتلال الإرهابية المتمثلة في القتل والاعتقال والتعذيب، قد طالت من هم في سن الطفولة، حتى خيّمت صور الرعب وزنازين القهر والإذلال على عقولهم، فليس غريبا أن تأتي طفلة بعمر الزهور لتصف أحوال الأسرى في معتقلات الاحتلال، حتى لو لم يكن لها فيها أحد من المقربين، فهذا ما تسمعه وتشاهده في وسائل الإعلامية المختلفة، خاصة وأن قضية الأسرى من المعادلات التي لا يمكن المساومة عليها، لأنها تمس الكبرياء الفلسطيني في نضالاته ومقاومته للغاصب المحتل، وهي دائما في مقدمات الوسائل الإعلامية المتنوعة، أو الأنشطة الجماهيرية في الميادين العامة والخاصة.

تصف (أسل) الزنزانة من داخلها، وتدقق في تفاصيل الصورة، فتقول في (آهات أسير) [38] : « ورأيت النور... وأنا خلف القضبان في الزنازين أقبع... ولعبت دور المحبوب... وزنزانتي أصبحت لي مهجع» إنها هنا تعيش مشاعر السجين و أحاسيسه، فقيمة الحرية التي يعرف معناها السجين، تختلف عن القيم التي يعرفها الآخرون، فالنور يخرج من مكعّب العذاب، لا سماء... لا شمس... لا هواء... لا شبابيك... لكن النور يسطع ويضيء المكان، تسترسل (أسل) في وصف ثياب السجين وأشيائه داخل زنزانته الانفرادية التي لا تتجاوز مساحتها أكثر من 1–2م « وثوب مهترئ... قليل الصوف كل ليلة أرقع... ولُحُف... شبه لُحُف خجلت اللُحُف إن ذكرتها أمامها وقامت تدمع... » فهي الغطاء والسرير (البرش) الذي ينام عليه السجين، وفي العادة تكون بالية، رائحتها نتنة من شدة الرطوبة والعفن، ثم تواصل في وصف الحالة النفسية التي تعتري الأسير في زنزانته « وعيناي إن مرّ السجان ببابها... تبكي، كما تبكي السحاب وتفجع... ويداي إن لامستا الأغلال... من الأغلال تنفر» إنه ليس البكاء بمعنى الضعف و الوهن والندم، وإنما هي الحسرة على الوطن الذي يتسلط عليه الغرباء، حتى أصبح أبناؤه وهم فيه تعساء وأشقياء، لكن النور لا بد أن يخرج من رحم الظلام، وضياء الحرية لا بد أن يسطع من بين القيود والقضبان والأغلال، « ورأيت نور الشمس في ليلي خلف القضبان يسطع... إني التجأت الى الرحمن... صمت وتبتلت... فكان لي المرجع... » هنا تظهر قوة الإيمان في الاعتماد على الله فهو الأنيس في الوحدة، وهو النصير في الغربة، فالهامات القوية المؤمنة لا تنحني إلا لربها، ولا تركع إلا لخالقها مهما

كانت سطوة الجلاد وجبروته « وقرّت عيني بتلاوة القرآن... ذكرت ربي لغيره لن أركع» هنا يتجلى التناص القرآني، الذي يلفت الانتباه إلى قدسية المقاومة.

ومثلما ينتج عن اعتقال الطفل أثرا جسديا ونفسيا، فإنه ولا شك يترك أثرا بالغا على القيم الثقافية، إذ ينتج عن اعتقاله بالطريقة اللاإنسانية، أثرا ثقافيا مدمرا عليه، فهو يستبدل الضحك، واللعب، والانطلاق، بالعزلة، والشك، والحذر، حيث يتدمر عالم الطفل بالتدريج وبشكل منهجي، الأمر الذي يجعله يواجه حياة مليئة بالخوف، خالية من أي حافز للبناء [39]

3. السجن الجماعي:

بعد الانتهاء من فترة التحقيق، يُقاد السجين إلى غرف المساجين، حيث المساحة الصغيرة والعدد الكبير، وفي هذه الحالة يكون السجين إما بانتظار المحاكمة أو الخروج من السجن أو الإهمال المتعمد، لتحطيم معنوياته وإذلاله، وفي تلك الأثناء يتعرف السجين إلى قضيته وفصائل الحركة الوطنية، مما يعزز في نفسه الوعي السياسي الذي لا بد منه في مقارعة الاحتلال، حيث يتحول السجن إلى مدرسة للنضال يلتقي فيها السجناء ويتحدثون ويتحاورون، ويتعلمون من خلال الكتب والأوراق والأقلام التي يتم تهريبها سرا، وفي تصريح لرئيس وزراء إسرائيل الأسبق (إسحق رابين) يقول فيه: « إن عشرات الآلاف من الفلسطينيين قد اجتازوا دورات في التأهيل الوطني تحت إشراف الجيش الإسرائيلي– أي في معتقلاته رغما عنه– ، فالفلسطينيون يحولون معسكرات الاعتقال إلى معسكرات توجيه وإعداد، وهم لم يكونوا ليصلوا إلى هذا المستوى لولا معسكرات الاحتلال « [40] .

أما الطفلة (ميرا الشيب) تتحدث عن معاناة الأسرى في سجون الاحتلال، حيث تستعرض صور الاضطهاد والاستعباد والحرمان في خاطرتها (الأسرى البواسل) فتقول[41]: « يا لذلك المكان الموحش الذي يدعى السجن وما يحوي من أسرار ومعاناة، ففي داخل أسوار المعتقل توجد قصص وحكايات للعديد من الأبطال».

ثم تتعرض ميرا إلى وصف مشاعر السجناء الذي يملأ الأمل نفوسهم، وتخفق قلوبهم على إيقاعات الحرية « فمنذ دخولهم تلك الأسوار وهم لا يحلمون إلا بالحرية التي افتقدوها»، وفي هذه الأثناء تصور مرارة الفراق، ولوعة الاشتياق « لأسرهم وأطفالهم الذين يحلمون في احتضانهم» إنهم يتوقون لفجر جديد يطرد ظلمة السجان، ويحملهم إلى فضاءات الحرية والحياة.

الأسرى شهداء مع وقف التنفيذ:

إن الاحتلال الإسرائيلي لم يتوان عن تحويل المدارس إلى ثكنات عسكرية ومراكز للاعتقال والتحقيق، حيث حُرم الآلاف من الطلاب من الوصول إلى مدارسهم، (جهاد عفونة

13 سنة) تناول هذه المشاهد ضمن مجموعته القصصية (من طفولة شعب بلا طفولة) تحت عنوان (مدرسة أحمد) فيقول [42] : «عدداً من آليات الاحتلال تقف على باب مدرسته... حاول الرجوع، ولكن جندي الاحتلال بسماعة كان يمسكها بيده طلب من أحمد الاقتراب قليلاً ومنعه من العودة من حيث أتى « فلما تقدم أحمد واقترب من الجندي « طلب منه فتح الحقيبة وإخراج ما فيها، فقام أحمد بذلك « يسترسل جهاد في تصوير الموقف بطريقة تثير مشاعر الحزن والأسى: « وبعد تفتيش دقيق لأحمد وحقيبته أمر الضابط بأخذ أحمد إلى المدرسة، هنا علم أحمد بأن المدرسة أصبحت مركز اعتقال « وكانت المفاجأة أن وجد عدداً ليس بالقليل من أصدقائه « وبعد الساعات المؤلمة من التعذيب والضرب قرر أحمد أن يعترض... إنه يريد أن يكلم الضابط الآن، جاء الضابط الذي كان يحمل بندقية كبيرة وعدة قنابل « وبدأ الحوار القصير بينه وبين الضابط، حيث تبرز صورة التفكير الصهيوني العنصري تجاه أطفال فلسطين « نظر أحمد الى الضابط الذي قال له بلغة عربية مكسرة... «شوبدك»... فقال أحمد وهو يرتجف: لماذا تقومون باعتقالنا، فنحن فقط أطفال؟ فقال له الضابط: أنتم لستم أطفالاً، أنتم إرهابيون، فقال أحمد: لا، فنحن أطفال» وبعد جدال بين الضابط وأحمد بأنه ليس معتقلاً وإنما من حقه أن يكون طالباً في مدرسته، « فجأة ضرب الضابط أحمد على رأسه بكعب بندقيته فنزف أحمد، ومع منع قدوم العون الطبي إلى أحمد سقط شهيداً» مضرجاً بدمائه الزكية.

لا أحد يقوى على الإنكار أن الاحتلال يُمعن في تركيع الصغار لكسر إرادة الكبار، مستهدفاً المستقبل الوردي الذي قد يكون بانتظارهم، وذلك من خلال تعريضهم إلى هزات عنيفة وصدمات شديدة، وتارة في غياهب السجون والمعتقلات، وتارة أخرى بالقتل أو الملاحقة أو التشريد، إلاّ إن للوطن الفلسطيني طعما مذاقه الصبر، ولونا متميزاً بلون الشروق، ورائحة فواحة بعبق الحرية.

المرأة الفلسطينية أمُّ الأسرى والشهداء:

لا يخفى على أحد أن للمرأة الفلسطينية دورا بارزا في حركة النضال الفلسطيني، فهي التي علمت أبناءها حب الوطن، وأرضعتهم حليب النضال والمقاومة، فلم تكن في يوم من الأيام أقل شأنا من الرجل، حيث استطاعت أن تفرض حضورها الإنساني والاجتماعي والنضالي.

فالطفلة (هديل ياسر عمر) [43] : تستعرض في قصتها (بطولة واستشهاد) حياة الفلسطيني المهددة بالسجن أو الموت، فتقدم للقارئ صورة حية للإجراءات القمعية الإرهابية « من وراء الجدران الأبية، استيقظت الأم التي فقدت زوجها وابنها في الانتفاضة

الأولى، استيقظت على صراخ و ضجيج، وأصوات تلاطم البنادق على الباب» من خلال هذه المشاهد تتابع هديل عرض الممارسات الاحتلالية في اقتحام البيوت وترويع ساكنيها، «وإذا بمجموعة من الجنود يقفون و يسألونها بلهجة حادّة عن ابنها محمد، حيث كان مطلوباً من قبل سلطات الاحتلال»، تحاول هديل إظهار دور المرأة الفلسطينية في مقاومة المحتل..... فتقول: « وبكل ما لدى أم محمد من قوة و عزيمة..... وقفت تتصدى لجنود الاحتلال حتى أُغمي عليها، فسقطت على الأرض و لم تعُد تدري ما يحدث حولها» تسترسل هديل في تفاصيل الصورة « سمع محمد ما حدث لأمه، مما دفعه للعودة إلى البيت محاولاً إسعافها، سمع جنود الاحتلال صوت محمد فركضوا نحو الباب متسللين يريدون أن يمسكوا به، فقاموا بتكبيل يديه الطاهرتين بالحديد الدنس، اليدين اللتين حملتا الحجارة التي تبكي لأنها لم تقتل حتى ولو واحداً منهم، ثم ذهبوا به إلى سجن بعيد..... وقاموا بتعذيبه أسوأ العذاب» و تتابع هديل في سرد أحداث قصتها، بعد أن خرج من السجن وذهب ليزور البيت الذي طالما دافع عنه « اندهش عندما أخبره شخص أن أمه ماتت بعد أسره بساعات..... عندها شرد قليلا ونذر نفسه لفلسطين و للأسرى المعتقلين، و كذلك لأجل البيوت المدمرة، فجاهد و ناضل حتى استشهد».

أثر السجن على الطفل الفلسطيني:

من خلال استقراء كتابات الأطفال يظهر أثر السجن عليهم، ويتخذ مناحي مختلفة منها:

1. السجن كابوس مرعب:

إن السجن في كثير من الأحيان يبقى في وعي الطفل كابوساً مرعباً وثقيلاً، وتعبيراً مؤلماً عن فقدان حنان الوالدين، ورمزاً للحرمان من الطفولة التي لا بد أن يمارسها بصورتها الطبيعية، وبهذا المعنى تتكون أحاسيس الطفل وعواطفه، التي يحتل الجزء الأكبر منها ظلمات قد حفرت في الذاكرة عبثية الحياة، وشؤم المستقبل وظلم الواقع.

في هذا السياق تكشف الطفلة فاطمة عن خوفها من جنود الاحتلال فتقول في قصتها (في مدينتي حرب) : «جنود غرباء يدخلون بيوت الناس.. أحيانا يخرّبون ويكسّرون.. وأحيانا يسرقون ما يريدون.. وأكثر ما يخيفني هو حين يأخذون أحد أفراد عائلتي « [44] .

فالقهر لا يولد إلا المقاومة والرفض، وقد تكون المقاومة بالثورة والرفض حتى لكل القيم والمعادلات الموجودة في البيئة التي يعيش فيها، فالضعف والتمرد نتيجتان حتميتان، وقد ينجم عن عجز الطفل عن المقاومة تحطيم شخصيته وتعذيب نفسيته [45] .

2. طهارة النفوس:

لقد أدرك الأطفال أن الكتابة طهارة للنفوس من كل كابوس، وكوابيس الاحتلال بصورة خاصة هي التي تؤرق مضاجعهم، فهم يناضلون بالقلم والكتاب والحجر، بحبر أقلامهم وإبداعاتهم الواعدة، علَّهم يجدون سبيلاً يتنفسون من خلاله عبير الخلاص والحرية، وميداناً واسعاً للتعبير عن حُبهم للطفولة والحياة.

فالاحتلال هو الذي يقتل أحلامهم بالحياة!!! وهو الذي يدمر بيوتهم ويشرد أسرهم!!! وهو الذي يطاردهم ويقتلهم ويعتقلهم من قبل أن يتذوقوا حليب أمهاتهم!!!

تتساءل (جمانا رستم 13 سنة) بجرأة كل أطفال فلسطين، تعبر عن قسوة الألم الذي يحيط بالطفولة على أرض المحبة والدموع، تكشف وجه الاحتلال القبيح، وترفع صوتها في وجه الحاقد المتغطرس في أثناء المجازر التي ارتكبتها همجية الاحتلال في غزة، فتصرخ قائلةً:

«لماذا تشوّهون طفولتنا؟ لماذا تصرّون على إسماعنا أزيز رصاصكم، وأصوات عبوّاتكم رغماً عنّا، بدلاً من زقزقة العصافير؟ لماذا تصرون أن نشتم رائحة البارود، بدلاً من عبق الزهور؟ لماذا تصرون أن نرى وجوهكم المخفية خلف قطعة قماش سوداء، أو سواتر من حجارة صمّاء؟ تنشرون القتل والدمار، بدلاً من المحبة، وحب الجار للجار» [46].

3. الوجع المستمر:

أما (مصعب عبد الرحيم 14 سنة) يتناول في قصته (ونحن نحب الحياة) صور الوجع المستمر في حياة الشعب الفلسطيني، فيقول [47] : « يحاول ما في وسعه الجهد تجميع ملامحها، تراءى له ولو للحظة أنه لا يذكر لون عينيها، ولا حتى شعرها ربما، لكنه ليس متأكداً من خواطره تلك، نفض رأسه مستاء، وكأنه يطرد أفكاره تلك وهمس بكلمات شاعر الثورة محمود درويش: أحنُ إلى خبز أمي... وقهوة أمي وتكبر فيَّ الطفولة على صدر يومٍ وأعشق عمري».

بهذه الكلمات الدافئة تغنى في شوقه لأمه التي أحب أن يراها ويتعرف إليها بعد فراق طويل، ثم يمضي في أحلامه وخلجات قلبه « أتراني نسيت حقاً؟ لقد مرَّ على فراقها زمن طويل، اثنتا عشْرة سنة وثلاثة أشهر وثلاثة عَشَرَ يوماً، أجل فعمري حينها لم يصل السادسة» ويستمر مصعب في رواية أحداث قصته معلناً عن مكان أمه التي حرمها الاحتلال من حقها في احتضان ابنها « لكن أمي هناك، إنها ليست ميتة كما تظنون، بل هي في حبسها الانفرادي في سجن النساء هاداريم_منذ اثني عَشَرَ عاماً».

4. البؤس والإحباط:

إن تعرض المجتمع الفلسطيني لعوامل القهر والاضطهاد، قد ولّد في نفوس أبنائه مشاعر الخوف من مستقبل طفولتهم، مما أدى إلى شعورهم الدائم بالإحباط اتجاه المجهول الذي يتربص بأحلامهم وطموحاتهم.

وفي هذا الإطار تعبر (عدلة الناظر) عن عذابات الطفولة في فلسطين بكلمات بريئة مختصرة، فتقول في قصيدتها (ثوار بالفطرة) [48] : « تسرق الأيام منهم الطفولة.. تحرمهم من المشاغبة والبكاء.. تقتلعهم أزهاراً وريحاناً.. تخرجهم إلى الحياة في تشرين.. وتحصدهم قبل نيسان..!! ».

وتتناول الطفلة (مجد اللهالية) بشكل مثير حالة البؤس والإحباط التي يعيشها أطفال فلسطين فتقول في خاطرتها (أطفال فلسطين معلمون) [49] : « طفل استقال من الطفولة.. خرج من المدرسة.. وترك ألعابه و أرجوحته تحت أشجار الزيتون؛ ليدرس في مدارس الثائرين.. ».

تأثر أطفال فلسطين بما يدور حولهم من أحداث، فهم يتنفسون أشكال العنف الموجه ضدهم، ويتنفسون أحداث الوطن، فيتجاوزون سنين عمرهم تعالياً عن مفهوم الطفولة، فهم يعيشون طفولة مشردة، وطفولة يستهدفها الموت الموجود في كل زمان ومكان.

5. الطفولة الضائعة:

لم يعجز الأطفال عن البوح بمشاعرهم، رغم الحصار النفسي الذي يداهم أحلامهم، تقول الطفلة (هبه عبد الهادي) في قصتها (من واقع مآسينا) [50] : « قدرنا أن نحيا في وطننا غرباء، أن تزداد غربة بعضننا عن بعض، حتى يكاد ذلك يذهب بالعقول، فهذا طفل لم يتجاوز بعد الثانية من عمره استشهد والده وهدم بيته... ودخلت أمه السجن بتهمة مساعدة أبيه!! » وما زالت هبة تروي قصتها: « وهكذا تُرك الصغير في الدنيا تتقاذفه أيدي الأقرباء، والأم خلف القضبان، تنتظر الزيارة تلو الزيارة لترى ولدها... تحاول ضمه إلى صدرها.... وهو بقربها» وتسترسل هبه في عرض مشاهد قصتها « وتقضي الأم حياتها بالأسر وهي على حالها، تنتظر الإفراج لتسعد بصغيرها.. » وتقف هبه مشدوهة تتساءل بمرارة « فهل سيعرف الصغير أمه...؟ »،.... فحينما يكون الأطفال بلا مأوى، وبلا أم، وبلا أب، كيف يمكن أن تكون أحلامهم؟ .... أما الجواب فهو عند كل إنسان...!!

من الواضح أن الأسرة التي ينتمي إليها الطفل، لم تبق على حالها، فآلاف الفلسطينيين «ولدوا بعد أن دخل آباؤهم السجون ولم يروهم إلاّ بعد سنوات عديدة... » [51] .

زيارة السجين:

1. لحظات الانتظار:

تظهر المعاناة عند زيارة السجين حينما يحث الناس الخطأ منذ ساعات الفجر الأولى باتجاه السجن، كي لا يفوتهم موعد الزيارة، ثمة جموع غفيرة من الآباء والأمهات والزوجات اللواتي يصطحبن أطفالهن، والذين كانوا قد جلسوا بباب السجن من الفجر، في انتظار اللحظة التي يفتح فيها هذا الباب لزيارة المعتقلين في سجون الاحتلال، وقد يمنع بعض الزائرين من الزيارة بعد أن قطع مسافات طويلة، استغرقت ما لا يقل عن أربع ساعات أو أكثر في بعض الأحيان، وقد احتمل عناء الطريق، ولحظات انتظار عصيبة قد امتدت إلى ما بعد الظهيرة تحت سياط شمس الصحراء الملتهبة، وفي أغلب الأحيان تكون أسباب المنع واهية.

وفي هذا السياق تستعرض الطفلة (حيفا استيتي) في قصتها (فجر الحرية) رحلتها لزيارة أبيها في سجن النقب الصحراوي فتقول [52] : « عندما حان موعد الزيارة رافقت أمي في تلك الرحلة الطويلة، هناك رأيت الصحراء لأول مرة في حياتي، ولكني للأسف لم أستطع الدخول للزيارة؛ لأن والدتي نسيت شهادة ميلادي التي كانت شرطا أساسيا من أجل الدخول للزيارة، وهكذا تحملت آلام السفر ومشقته، وحرارة الجو الملتهبة، وفي النهاية بقيت في الخارج ولم أرَ والدي».

2. الطفل لا يعرف أباه:

يستعرض (خالد عبد يحيى 13 سنة) في قصته (زيارة محمد لأبيه) حكاية الطفل محمد الذي وُلد بعد أن دخل والده السجن، إذ يقول [53] : « أسماء– أم محمد– هكذا تحب أن تدعى، تُلبس محمداً أجمل الثياب، تمسح شعره، تحرص ألاّ تجلس إلا وهي تحمله، فاليوم سيراه والده، فقد أنجبته ووالده في السجن ولم تتمكن من زيارته حتى الآن، إن عمره سبعة أشهر، سيزور أباه، تساءل الجميع: اليوم سيدخل محمد عند والده» يسترسل الطفل عبد في عرض أحداث قصته التي تظهر من خلالها همجية الاحتلال وقسوة ممارساته اللاإنسانية « الكل يسأل نفسه: كيف سيعرفه إن كانت هذه أول مرة يراه فيها؟ ولكن لا جواب، أحسّت أم محمد أنها سُئلت سؤالاً غريباً، فتجيب هي: سيعرفه، نعم أنا متأكدة سيعرفه، فأنا أضع صوراً كثيرة في البيت، كنت دائماً أقول له: هذا بابا...!! ».

هنا تبدأ المأساة فالجراح تئن والقلوب تعتصر حسرةً وألماً، والدموع من العيون تنفجر، والمشاعر تتصدع، وتعلو وتيرة الاندهاش في القصة حتى تصل إلى ذروة المأساة

فيها «أدخل الصغير لوالده، فعلا صراخه وبكاؤه، يحاول الأب احتضانه، وكلما ضمه زاد صراخاً وبكاءً، قَبّلَه، ضمَّه، حضنه، ولكن لا فائدة وأسماء تنتظر، وبكت وبكت كما لم تبك من قبل...» وبكى الجميع معها وتفطرت قلوب الحاضرين ألما وحزناً.

فهل هناك أكثر مأساة وأكثر ضياعاً حينما لا يعرف الابن أباه أو أمه...؟؟؟

3. من صور القهر والحرمان في أثناء الزيارة:

أما (رولا الرابي) فإنها تصوّر اللحظات العصيبة التي تواكب نفوس الأهل في زيارة أبنائهم في سجون الاحتلال، حيث قبضة السجان تفرض همجيتها على إنسانية البشر، فتنزع عنهم صفة الكرامة والاحترام، وفي مشهد عاطفي مؤثر تستعرض (رولا) الإجراءات اللاإنسانية أثناء زيارة السجناء تحت عنوان (الحرية) [54] : « يا زائر السجن هلا سلمت لي على حبيب هو أخي وزوجي، وأبي وعمي وابني... كل أولئك الذين أناروا ظلمة الزنازين بدورهم حفظوا بقوالب من زجاج عازل «، إنه الزجاج الذي يفصل بين السجين وأهله خلال الزيارة ويكون من النوع السميك جدا، ولقد أظهرت (رولا) في هذا المقطع التماسك الاجتماعي والنسيج الوطني الذي يربط بين السجين ومجتمعه، وما يلاقيه من محبة واحترام.

ثم تتابع بوصف لحظة اللقاء « لا تسمع له صوتا ولا أنينا إلا عبر أثير مقطوع « حيث يكون الحديث بين الطرفين من خلال سماعة التلفون المراقبة، وفي صيغة السؤال الاستنكاري تسترسل (رولا) في الكشف عن القيود التي يفرضها الاحتلال على السجناء وزائريهم « كيف حالهم؟ هل صافحتهم؟ أم أنك لامست ذلك الجدار الذي حرمك حرارة اللقاء « فهي تعلم أن زيارة السجناء لحظاتها مريرة، والشوق إليها يحرق القلوب، زيارة تكتنفها حسرة اللقاء وقسوة السجان.

تتأوه (رولا) طويلا في غصة تبكي لها الجدران، وترتعش منها النفوس، «آآآه لو قبلتهم علّ بعض القبل تطبع على ذلك العازل اللعين!!! هل اكتفيت بالنظرات أم أن دمعك سابق بسمتك!!! ». هكذا يبدو المشهد حينما تختلط الابتسامة بالدموع، فالحرية مطلب والقيد لعين، فالأهل يقطعون المسافات البعيدة لزيارة أبنائهم، لكنهم لا يحظون سوى بالنظر إليهم فقط، ربما هي مثل زيارة القبور، إلا أن السجين تراه أما الميت فلا تراه... فالحالة واحدة والفارق بينهما بسيط، فالسجون هي كذلك قبور الأحياء، وتنتهي الزيارة، فالوقت يمر سريعا رغم قصره... ثلاثون دقيقة فقط «هل سمح لك الوقت بشرح كل التفاصيل؟؟ أم أن الثلاثين دقيقة سردت ذُلّ السنين!!! ماذا قلت لهم عن الوداع؟! ». ذُلّ السنين وسكين

الاحتلال المسلطة على رقاب الناس منذ عقود من الزمن، وتختتم (رولا) هذه المشاهد المؤلمة بثقة مطلقة بقرب اللقاء تحت شمس الحرية، وقد انهزم الاحتلال، وانحنت قضبان السجون لمشيئة الله، ثم مشيئة السواعد التي لا تحنيها الأغلال ولا تنال منها قبضة الجلاد « أنا على يقين إنك استودعتهم بالفرج القريب!!! ».

التحدي والانتصار:

الأسرى مشهد عذابات يومية تتجدد في متاهاته كل أصناف العنصرية والإهانة والتنكيل، فعمليات التعذيب اللاإنسانية، تُظهر إلى أيِّ مدى وصلت آلة القمع الوحشي في امتهانها لكرامة الإنسان، والكثير منهم من قضى نحبه تحت غطرسة الجلاد، إلاّ أنّ الوجود في السجن يولّد التحدي والأمل، ويبعث على التوحد بالهدف، خاصة " وأن السجن واجهة أخرى للنضال والمقاومة، والمعتقل عندما يقاوم فهو يتشبث بالحياة ويبقى التطلع إلى الحرية شعاراً لطالبيها» [55] .

وفي قصة (اعتقال طفل فلسطيني) [56] يصف الطفل من خلالها ظلمة السجن وقسوة السَّجان، مخاطباً أمه مطمئناً إياها على قوة إرادته وهزيمته لرموز القمع الدموي:

لم أمت يا أمي...
أنا حيّ...
أقبع في زنزانة حقيرة لا تصلح إلاّ للعبيد...
أصارع قوى الظلام وكلابٌ متوحشة بثياب البشر

ويبشر أمه أنه لم يخضع لإرادة الغاصب، ولم يعترف بما يريده منه، فيسترسل قائلاً:

استعملوا كل الأساليب معي...
فقؤوا عيني...
أحرقوا جبيني..
اقتلعوا أظافري
داخوا أمام إرادتي وصبري وصمودي

داخوا.... كلمة عميقة المعنى، من الصعب أن تعدلها كلمة أخرى، إذ إنها تعبير يحمل بين حروفه جبروت الجلاد، وصبر المجلود، بل هي صراع بين إرادتين، غير أن الأقوى في هذا الصراع كان الضعيف، الذي داخ الغاصب من انتزاع اعترافاته نتيجة لصبره وثباته.

ولاشك أن الاعتقال « ليس حرماناً من الحرية وحسب، إنه افتراء على الكائن جسداً ونفساً، الجسد بهدف تطويعه في جلسات تحقيق وتعذيب طويلة، وقد لا يحتمل فنون الضبط

والعقاب المتقنة،إلا أن النفس المتوارية خلفه عصية المنال، لها ملكوت تستمد منه المدد يبلسم جراح الجسد المثخن وتمنحه أملاً في غد مشرق وانتصارا للإرادة « [57] ، فالحرية في الوطن لا تولد إلا مكبلة بالسلاسل والقيود والجراح، والعذابات المستديمة.

أطفال في أقبية التحقيق:

على الرغم من طرق التعذيب وأساليبه، إلا إن الصبر والإرادة يشكلان سلاح التحدي ضد الجلاد وجبروته، فحينما تنتصر المقاومة ينتهي الظلم، وحينما يستمر الظلم تزداد شعلة المقاومة توقدا، فلم يستطع السجن والتعذيب النيل من إرادة السجين.

أما (عدلة الناظر) تأتي بمشاهد تلمس من خلالها نظرة التحدي، والممارسات العدوانية الحاقدة، إذ إنها تصف الإجراءات القمعية في سجون الاحتلال بدقة متناهية، حيث تقول في قصيدتها (أطفال في أقبية التحقيق) [58] :

أنتظر كل ليلة على النافذة....
أحلم بنور خافت من بعيد....
يحطم أسلاك السجون الشائكة ....
تلتهب بعينيه شرارة غضب ووعيد....
يحطم القيد الذي أبى أن ينكسر....

فالليل عند الفلسطيني يعني الخوف والقلق والتوتر، لأنه مرتع لقوات الاحتلال التي تقوم من خلاله بعمليات الاعتقال والتخريب والترهيب، ولذلك فإن شرارة الغضب المتأججة في نفوس الناس، هي التي تفجر عتمة الليل في تلك اللحظات الحرجة، فتحطم غرور الحاقد وغطرسته الهمجية، ثم تصف عدلة عمليات التفتيش التي يقوم بها السجانون للمسجونين، حيث يصادرون مقتنياتهم الشخصية، حتى الأقلام والدفاتر؛ لمنعهم من الكتابة والدراسة والتعلم إمعاناً في تجهيلهم، فتقول:

سلبوا مني دفاتري ....
سلبوا مني أقلامي ...
والنشيد...

إن السجّان يحاول انتزاع كل شيء من السجين ليدفعه الى الموت، عبر زجه في المعتقل وفرض سلسلة من الممنوعات، ومصادرة الأقلام والأوراق والكتب محولاً إياه إلى رقم لا حول له ولا قوة، وهو إن كان غير قادر على قتل المعتقل بالمعنى الحرفي لأسباب عدة، فهو يمارس القتل الفكري والثقافي عبر تشديد الحصار عليه، فالصراع كان دوماً بين السجين

والسجان محتدماً ومتواصلاً، وهو صراع بين من يدفع المعتقل للموت، والمعتقل ذاته الذي يسعى للتقرب نحو الحياة. (59)

وبصوت فيه من الحزن والأسى الكثير، تصور عدلة اغتصاب الاحتلال لأحلام الطفولة:

بتروا جناحي ...
عذبوا طفولتي ...
حاكموا براءتي ...
أريد حريتي ...
ويوماً سعيد

وتواصل عدلة وصفها لإرادة الأطفال المعتقلين، وعزيمتهم على التحدي والانتصار، وتبرز دور المرأة الفلسطينية بعامة والأم بخاصة، في مقاومتها للاحتلال بصبر وثبات على الرغم مما تعانيه هي وما يعانيه ابنها في سجون الاحتلال، فتقول:

تراك يا أمي تبكين ...
تراك يا أمي تبحثين ....
عن فأس به تكسرين
...قيد حريتي والآخرين

ثم تبعث الأمل في نفوس الأسرى وأمهاتهم، وتوظف البعد الديني بصورة صريحة، حيث تقول:

لا تيأسي ...
سيكون...
في يوم بيننا ...
عمرَ وصلاح الدين

صور من فعاليات الانتفاضة:

تحاول (أميرة عبد الرحيم جانم 14 سنة) في قصتها (قصة معتقل) (60) أن تبرز فعاليات الانتفاضة من خلال صابر، الذي يتكفل برعاية والديه، حيث انقض عليه جنود الاحتلال في أحد شوارع البلدة، فأوسعوه ضرباً وتعذيباً، فعقد العزم على الانتقام لنفسه ولأبناء شعبه.

« لقد أصبح صابر كغيره من شباب الانتفاضة، مطلوباً للأعداء، وهدفا لرصاصاتهم التي لا ترحم، وفي أحد الأيام أصابت رصاصات الاحتلال صابر، فسقط يعاني آلام إصابته».

بهذا المشهد البطولي تسترسل أميرة في استعراض الصورة التي تمثل معظم أطفال فلسطين وشبابها، فتظهر قوة العزيمة والإرادة، والإصرار على مقاومة المحتل، فتقول: " بعد شفاء صابر وخروجه من المستشفى واسترداد عافيته وقوته، عاد مرةً أخرى يشارك في الانتفاضة حتى ظفر العدو به في ليلة من الليالي».

تواصل أميرة حديثها في وصف عملية اعتقال صابر، فتقول: " عندما تحولت هواجس أم صابر إلى حقيقة، عندما استيقظت هي وزوجها على جنود الاحتلال يقتحمون منزلها ليعتقلوا ابنها الوحيد... » هذه القصة كانت تبدأ أحداثها مع بزوغ فجر كل يوم، وتنتهي مع غياب الشمس.

من سرير أمي أستمد صمودي:

مساحة الوجع في فلسطين تكبر يوماً بعد يوم، فالأبناء يرثون الآباء حتى في القيود والأغلال، وقضبان السجون التي لا تميز بين صغير أو كبير، فالقصة ليس من بنات الأفكار أو من ضرب الخيال، وقد تكون من الغرائب والنوادر في حياة الإنسان، غير أن هذا أمر طبيعي لدى شعب يعاني من ويلات المحتل، فحينما ينام الطفل على سرير أمه في سجون الاحتلال بعد عشرين عاماً من اعتقالها وخروجها من السجن، تكون المأساة واحدة من فضائح الممارسات اللاإنسانية للهجمة العنصرية، والتطهير العرقي الذي يمارسها الاحتلال الصهيوني ضد أبناء الشعب الفلسطيني، وإمعانه في تدمير هذا المجتمع من خلال قطع أواصر الصلة والترابط بين أفراد الأسرة الواحدة التي تعد الخلية الأولى في توفير التربية السليمة لأبنائها.

كما وتظهر في القصة دور المرأة الفلسطينية في مسيرة نضالها وتضحياتها، وما نتج عنها من مآسٍ وآلام لم تنقطع على مر السنين، وعلى الرغم من ذلك ما زالت صابرة فخورة في توفير التربية الوطنية لأبنائها، وتعزيز ثقافة المقاومة ضد المحتل.

يروي (أحمد أبو لافي 16 سنة) قصة اعتقاله (من سرير أمي أستمد رائحة صمودي) ، والدموع تكاد تقفز من بين الكلمات، يتحدث عن أمه بشغف وحب واحترام، وبدأ سرد قصته بقوله [61] : (أنا محظوظ لأن القضاء والقدر كتب لي أن أكون في نفس السجن والغرفة، الشاهدة على معاناة وصمود وتضحيات والدتي، التي أتشرف بها، وهذا يرفع من معنوياتي، ويزيد من عزيمتي ويجعلني أتغلب على ظلام السجن) ، لقد حفظ الأسير أبو لافي خلال حياته الكثير من تفاصيل رحلة اعتقال والدته، وقد ترسخ في ذاكرته أن والدته قد أمضت فترة اعتقالها قبل (25 عاماً) في سجن (هشارون) ، لذلك فور دخوله السجن بدأ يبحث عن المكان الذي احتجزت فيه والدته، فيقول: « عند أول لقاء مع والدتي أثناء

خروجي للمحكمة– فهي لا يسمح لها بزيارتي لأنها أسيرة سابقة– كان أول سؤال لها، في أي غرفة وعلى أي سرير « برش» كنت تنامين، لأنني في نفس السجن».

أبلغته والدته أنها كانت تقبع على البرش الأول في الجهة اليمنى من غرفة رقم (2) ، عاد أبو لافي إلى سجنه بعد انتهاء المحكمة ليبحث عن سرير والدته، ويقول: « كنت متلهفاً للعودة للغرفة، طلبت من زميلي أن يعطيني مكانه، وأوضحت له بأن هذا السرير كانت تنام عليه أمي خلال اعتقالها.. فرحت كثيراً لأن زميلي لم يتردد». ثم يتابع أبو لافي قصته بفرحة يعتصرها الحزن والألم: « عانقت السرير وأصبحت لا أتركه لحظة، وعندما أنام أشعر بأني في حضن أمي.. كم أحبك يا أمي، ليت العالم يعلم مدى فخري واعتزازي بهذه الأم المناضلة الصابرة والأسيرة المحررة»، أبو لافي يفصح عن مشاعره قائلاً: « أنا أشعر بسعادة لأنني أشعر أن أمي معي، وأتذكرها في كل عمل أقوم به حتى أتحرر من قيود سجني»، ويسترسل أبو لافي في حديثة عن ذكريات اعتقاله، والمفاجأة العظيمة التي لم يكن يتوقعها، حينما أبلغه أحد الأسرى في إحدى الغرف، أن اسم أمه محفور على جدرانها– وهذا من بعض عادات السجناء في حفر أسمائهم على جدران الغرف أو الزنازين– فيقول: « أبلغني أحد الأسرى المقيمين في الغرفة الثانية ورقمها (17) أن اسم أمي محفور بالغرفة.. وسأعمل على الدخول إليها لأرى اسم أمي المحفور على جدرانها، كما هو محفور في ذاكرتي وقلبي، وسأسأل أمي على أي سرير كانت تنام فيها، لأبقى استمد من رائحتها صمودي».

ويختم أبو لافي قصة اعتقاله بقوله: « أبي كان يزور أمي قبل أن يتزوجها في هذا السجن، والآن يأتي بعد مرور عشرين عاماً على تحرير والدتي ليزور ابنه... »

الخاتمة:

بعد أن تم تسليط الضوء على نماذج متنوعة من النصوص التي كتبها أطفال فلسطين، **فإن الدراسة قد توصلت إلى النتائج الآتية**:

1. تأثر الصغار بأحاديث الكبار عن السجون و المعتقلات الإسرائيلية، ومشاهدة صور التخريب والدمار وعمليات الاعتقال والمداهمات الليلية، إلى جانب مشاركاتهم بالفعاليات والمسيرات التضامنية مع الأسرى والمعتقلين.

2. بروز تأثر الأطفال بالتفاعلات السلبية للبيئة الاجتماعية والثقافية والنضالية، إذ عملت هذه جميعها على إقصائهم عن طفولتهم، فاستبدل اللعب والضحك والانطلاق، باليأس والشؤم والخوف من المستقبل.

3. الانغماس المباشر للأطفال بالعملية النضالية وفعاليات المقاومة، الأمر الذي أوجد في نفوسهم عوامل العنف والعدوانية والتمرد على كل ما هو موجود.

4. لم يكن أطفال فلسطين بمنأى عن الأحداث الدائرة على أرضهم، تلك التي تركت لديهم انطباعات و تأثيرات مؤلمة، وقد ورثتهم الحقد والكراهية و المعاناة، بدلا من الحب والسعادة، وتركت لديهم عبارات و ألفاظ تتماشى مع لغة الصراع التي تداهم أحلامهم فسيطرت لغة الواقع الذي يفرض حضوره على الطفولة الفلسطينية، بما فيه من معان ودلالات، حيث ظهرت بشكل واضح في عبارات و ألفاظ النصوص المكتوبة، فكان المعجم اللغوي للأطفال زاخرا بالمفردات التي تعبر عن هموم الطفل الفلسطيني، إلى جانب ألفاظ المقاومة و المفردات الناتجة عن وسائل القمع اللاإنساني المبرمج: السجن، والسجين، والمعتقل، والزنزانة، والقيد، والأغلال، والموت، والشهيد، والهدم، والتدمير، والظلام، والحرية، والليل، والضياع.

5. ضياع القيم الإنسانية الجميلة، والمعاني السامية والنبيلة، وغياب حقوق الطفولة، أدت جميعها إلى اتشاح النصوص بالسوداوية و الإحباط والثورة على الواقع، وكان تعبيرهم أكثر إحساساً بمشكلة الطفولة في فلسطين.

6. استخدام اللغة التقريرية في معظم النصوص، نظرا لمناسبتها لثقافة الأطفال، و قدرتها على التعبير عن المواقف والمعاني التي يقصدونها، دون زخرفة أو تشكيل أو تزويق.

7. استخدام تقنيات السؤال في أكثر من موضع، تعبيراً عن الرفض والاستنكار لما يتعرض له الشعب الفلسطيني عامة و أبنائه خاصة (كيف، لماذا، هل، أين، همزة الاستفهام) وغيرها من الأسئلة الإيحائية المباشرة وغير المباشرة.

8. الوصف الدقيق لما يعانيه الأطفال الأسرى في سجون الاحتلال، إن كان من حيث أساليب التعذيب ووسائله المستخدمة في أثناء عملية التحقيق، أو سوء الزنزانة التي يقبع فيها السجين، تلك التي لا تصلح حتى للحيوان.

9. توارث العذابات من الآباء إلى الأبناء، في مثل قصة (أبو لافي) أو الطفل (محمد) ، وهذا أمر طبيعي في حياة الفلسطيني، إذ إن يد الاحتلال لا تستثني أحداً من قبضتها، وقد قيل (السجن وردة فواحة، لا بد أن تصيب الجميع برائحتها) .

10. لقد جاءت بعض عناوين النصوص اجتماعية، وجاء بعضها الآخر تصويرية، غير أن معظمها دالة على الأحداث و الصور التي تحملها، إذ إنها عبرت عن الحالة الوجدانية و النفسية و الشخصية التي يعيشها أبناء فلسطين في ظل الممارسات الاحتلالية اللاإنسانية، إن كان ذلك خارج السجون أو داخلها.

الهوامش:

1. الشامي، محمد: الطفل الفلسطيني، مجلة الأيدي الصغيرة، ع14، الحركة العالمية للدفاع عن الأطفال، رام الله– فلسطين نيسان 2008، ص6.
2. طلبة من مدارس فلسطين: أحلام مقتبل العمر، وزارة الثقافة الفلسطينية، رام الله– فلسطين,2011، ص113.
3. ستانفورث، شارلوت: أطفال بلا طفولة، ترجمة مركز جنين للدراسات الإستراتيجية، عمان– الأردن. 2004، ص23
4. الصواف، محمد توفيق: الانتفاضة في أدب الوطن المحتل

syrianstory. com/ comment

5. عثمان، عفيف: ثقافة المقاومة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. 2007، ص240.
6. زهران، سماح: الدور التربوي في مواجهة مشكلات الطفولة، مجلة الطفولة العربية، الجمعية الكويتية لتقدم الطفل العربي، مج 14، ع55، يونيو 2013، ص240.
7. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج 13، جزء 13، 1956، ص 203.
8. سورة يوسف , الآية 32
9. المصدر نفسه , الآية 33
10. سورة الشعراء, الآية 29
11. شاهين، أسماء: جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. 2001، ص 50.
12. الفيصل، سمر روحي: السجن السياسي في الرواية العربية، جروس برس، طرابلس – لبنان. 1994، ص32.
13. المرجع نفسه, ص31
14. العيلة، زكي: المرأة في الرواية الفلسطينية، ط1، مركز أوغاريت، رام الله– فلسطين، 2003، ص224.

15. شاهين، أسماء، جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، ص113.

16. أبو دف، محمود خليل: انتهاك حقوق الطفل الفلسطيني، مؤتمر حقوق الطفل، بيروت، أيار 2007

17. السلعوس, شادي, حتى يكبر الأطفال قبل أوانهم, مجلة الأيدي الصغيرة، ع20، آب 2009، ص12

18. عودة , علي عودة , الزمان والمكان في الراوية الفلسطينية , ط2، (د. م) ، 1997، ص 212.

19. الصواف , محمد توفيق , الانتفاضة في أدب الوطن المحتل

20. الزرو , نواف , أطفال فلسطين حصاد الدم والألم , عمان، الأردن، 2003، ص 209.

21. المرجع نفسه, ص212

22. شاهين , أسماء , جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا , ص118.

23. السلعوس, شادي, حتى يكبر الأطفال قبل أوانهم, ص12.

24. الشابي , أبو القاسم , الأعمال الكاملة , الدار التونسية، تونس، 1984، ص 236.

25. ستانفورث, شارلوت، أطفال بلا طفولة, ص12

26. درويش, محمود, الديوان, مج1، ط14، بيروت، 1996، ص13..

27. طوقان , إبراهيم , الأعمال الشعرية الكاملة , ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993، ص246.

28. الريس , نجيب , معجم البابطين لشعراء العربية , مج21، الكويت، 2008، ص151.

29. مجلة الغد , التراث , العدد الثالث, حيفا، فلسطين، 1979، ص20.

30. لوباني , حسين علي , معجم الأغاني الشعبية , مكتبة لبنان، بيروت، 2007، ص241.

31. العملة، وئام، وراء قضبان الزنزانة، مجلة يراعات، ع549، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، رام الله، فلسطين، كانون ثاني، 2014، ص8.

32. نشوان، حسين، أطفال فلسطين أثر الاحتلال، دار الينابيع، عمان، الأردن، 1997، ص52.

33. الفائدة، سالم، جدلية السجن والكتابة www. ahewar. org/ adebat

34. مصلح، أسيل، أين حقي، مجلة الأيدي الصغيرة، ع11، تشرين أول، 2007، ص5

35. اللهايلة، مجد , أطفال فلسطين معلمون، مجلة الايدي الصغيرة، ع21، نيسان، 2008، ص6

36. خضر , كريستين , كلمات في رهن الاعتقال، مجلة يراعات، ع55، آذار، 2014، ص2

37. سباتين , إسماعيل , الاعتقال www. palestine. info. com

38. حمادنة , أسل , آهات أسير, مجلة الزيزفونة، ع550، جمعية الزيزفونة لتنمية ثقافة الطفل، رام الله، فلسطين، كانون أول، 2013، ص 8

39. عبد الهادي , فيحاء , ظاهرة عربية الهوية الفلسطينية، صحيفة الأيام، ع3493، القدس، فلسطين، تشرين أول، 2005، ص7.

40. الزرو، نواف، أطفال فلسطين حصاد الدم والألم، ص297

41. الشيب، ميرا، الأسرى البواسل،مجلة الزيزفونة، ع38، شباط، 2014، ص10

42. عفونة , جهاد , من طفولة شعب بلا طفولة ط1، نابلس، فلسطين, 2003، ص25

43. طلبة المدارس فلسطين , قصص وحكايات منقوشة في الذاكرة , وزارة التعليم العالي، رام الله فلسطين، 2004، ص81

44. شرف الدين، فاطمة، في مدينتي حرب، أصالة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، (د. ت) .

45. هيبة , زكريا , نحو فلسفة التربية الحرية عند الطفل العربي, مجلة الطفولة العربية، مج 50، ع13، ص13

46. رستم , جمانا , لماذا تشوهون طفولتنا, مجلة الأيدي الصغيرة، ع9، حزيران، 2007، ص3

47. طلبة من مدراس فلسطين , أحلام مقتبل العمر, ص106

48. الناظر, عدلة, ثوار بالفطرة، مجلة الأيدي الصغيرة، ع14، نيسان، 2008، ص5

49. اللهالية، مجد, أطفال فلسطين معلمون, ص6.

50. عبد الهادي , هبة , من واقع مآسينا, مجلة الأيدي الصغيرة، ع 14، تشرين ثاني، 2007، ص5.

51. ستانفورث, شارلوت , أطفال بلا طفولة , ص23.

52. استيتي، حيفا، فجر الحرية، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، رام الله فلسطين، (د.) ، ص11

53. طلبة من مدارس فلسطين, أحلام مقتبل العمر , ص104

54. الرابي, رولا , الحرية, مجلة الزيزفونة، ع68، شباط، 2014، ص9

55. الفائدة, سالم، جدلية السجن والكتابة

56. منتدى الإسلام , مذكرات طفل فلسطيني farum. islamstory. com

57. عثمان، عفيف، ثقافة المقاومة (الفعل المقاوم في الأسر) ، ص248

58. الناظر، عدلة , أطفال في أقبية التحقيق, مجلة الأيدي الصغيرة، العدد 14، نيسان، 2008، ص6

59. عبد الله , حسن , الكتابة الاعتقالية, صحيفة الحياة الجديدة، ع6091، تشرين اول، 2012، ص9

60. طلبة المدارس في فلسطين, قصص وحكايات منقوشة في الذاكرة , ص74

61. أبو لافي, أحمد, من سرير أمي أستمد رائحة صمودي، مكتب وزارة شؤون الأسرى، نابلس، فلسطين، أيار، 2012.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. درويش، محمود: الديوان، المجلد الاول، ط14، دار العودة، بيروت، 1996
3. الريس، نجيب: معجم البابطين لشعراء العربية، المجلد 21، الكويت، 2008
4. الزرو، نواف: ، أطفال فلسطين حصاد الدم والألم، عمان الأردن. 2003
5. ستانفورث، شارلوت: أطفال بلا طفولة، ترجمة مركز جنين للدراسات الإستراتيجية، عمان– الأردن. 2004.
6. استيتي، حيفا، فجر الحرية، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، رام الله –فلسطين– ، (د. ت)
7. الشابي، أبو القاسم: الأعمال الكاملة، الدار التونسية، تونس. 1984
8. شاهين، أسماء: جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. 2001
9. شرف الدين، فاطمة (د. ت) : في مدينتي حرب، أصالة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
10. طلبة من مدارس فلسطين: أحلام مقتبل العمر، وزارة الثقافة الفلسطينية، رام الله– فلسطين. 2011
11. طلبة المدارس في فلسطين: قصص وحكايات منقوشة في الذاكرة، وزارة التعليم العالي، رام الله– فلسطين. 2004
12. طوقان، إبراهيم: الأعمال الشعرية الكاملة، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت. 1993
13. عثمان، عفيف: ثقافة المقاومة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. 2007.
14. عفونة، جهاد شاهر: من طفولة شعب بلا طفولة، ط1، نابلس – فلسطين. 2003
15. عودة، علي محمود: الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية، ط2، (د. م) 1997
16. العيلة، زكي: المرأة في الرواية الفلسطينية، ط1، مركز أوغاريت، رام الله– فلسطين، 2003.

17. الفيصل، سمر روحي: السجن السياسي في الرواية العربية، جروس برس، طرابلس – لبنان. 1994

18. لوباني، حسين علي: معجم الأغاني الشعبية الفلسطينية، مكتبة لبنان، بيروت. 2007

19. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج 13، جزء 13، 1956

20. نشوان، حسين: أطفال فلسطين أثر الاحتلال وممارساته، دار الينابيع، عمان– الأردن. 1997

الدوريات:

1. حمادنة، أسل: آهات أسير، مجلة الزيزفونة، جمعية الزيزفونة لتنمية ثقافة الطفل، العدد 550، رام الله_ فلسطين، كانون أول 2013

2. خضر، كريستين: كلمات رهن الاعتقال، مجلة يراعات، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، العدد 55، رام الله– فلسطين– ، آذار 2014

3. أبو دف، محمود خليل: انتهاك حقوق الطفل الفلسطيني، مؤتمر حقوق الطفل، بيروت، أيار 2007

4. الرابي، رولا: حريتي، مجلة الزيزفونة، جمعية الزيزفونة لتنمية ثقافة الطفل، العدد 68، رام الله فلسطين، شباط 2014

5. رستم، جمانا: لماذا تشوهون طفولتنا، مجلة الأيدي الصغيرة، العدد9، الحركة العالمية للدفاع عن الأطفال، رام الله– فلسطين، حزيران 2007

6. زهران، سماح: الدور التربوي في مواجهة مشكلات الطفولة، مجلة الطفولة العربية، الجمعية الكويتية لتقدم الطفل العربي، مج 14، العدد 55، يونيو 2013

7. سباتين، إسماعيل: الاعتقال، www. palestine. info. com

8. سلعوس، شادي: حتى يكبر الأطفال قبل أوانهم، مجلة الأيدي الصغيرة، العدد20، آب 2009

9. الشامي، محمد: الطفل الفلسطيني، مجلة الأيدي الصغيرة، العدد14، نيسان 2008

10. الشيب، ميرا: الأسرى البواسل، مجلة الزيزفونة، جمعية الزيزفونة لتنمية ثقافة الطفل، العدد 68، رام الله –فلسطين– ، شباط 2014

11. الصواف، محمد توفيق: الانتفاضة في أدب الوطن المحتل

syrianstory. com/ comment

12. عبد الله، حسن: الكتابة الاعتقالية، صحيفة الحياة الجديدة، العدد 6091، تشرين أول 2012.

13. عبد الهادي، فيحاء: ظاهرة عربية الهوية الفلسطينية، صحيفة الأيام، العدد 3493، القدس_فلسطين، تشرين أول 2005

14. العملة، وئام: وراء قضبان الزنزانة، مجلة يراعات، مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، العدد549، رام الله –فلسطين– كانون ثاني 2014

15. عبد الهادي، هبة: من واقع مآسينا، مجلة الأيدي الصغيرة، العدد 14، رام الله فلسطين، تشرين ثاني 2007

16. الفائدة، سالم: جدلية السجن والكتابة www. ahewar. org/ adebat

17. أبو لافي، أحمد: من سرير أمي أستمد رائحة صمودي، مكتب وزارة شؤون الأسرى، نابلس– فلسطين، أيار 2012

18. اللهالية، مجد: أطفال فلسطين، مجلة الأيدي الصغيرة، العدد21، نيسان 2008

19. مجلة الغد، التراث، العدد الثالث، حيفا_فلسطين، آذار 1979

20. مصلح، أسيل محمد: أين حقي، مجلة الأيدي الصغيرة، العدد11، تشرين أول 2007

21. منتدى الإسلام: مذكرات طفل فلسطيني farum. islamstory. com

22. الناظر، عدلة: ثوار بالفطرة، مجلة الأيدي الصغيرة، العدد21، كانون أول 2008

23. الناظر، عدلة: أطفال في أقبية التحقيق، مجلة الأيدي الصغيرة، العدد14، نيسان 2008

24. هيبة، زكريا محمد: نحو فلسفة التربية الحرية عند الطفل العربي، مجلة الطفولة العربية، الجمعية الكويتية لتقدم الطفل العربي، المجلد 50، العدد 13، الكويت 2012